تفسيرات أوروبية للارهاب وما اليه

د.سهام جبار

عندما تقرأ آراء وتفسيرات مفكري الغرب الاوربيين تحديداً حول الارهاب والاحداث المرتبطة به كأحداث ١١ أيلول في أميركا، كما قد جمعت في كتاب (ذهنية الارهاب) الصادر عن المركز الثقافي العربي تلمس بقوة الانشغال التجريدي الذي يريد ان يستخلص معنى من مجموع الاحداث السياسية يعزز الموقف القبلي ولكنه لا يريد ان يكون ظاهراً لئلا يبدو ساذجاً في النهاية غير مقبول انسانياً. تقرأ ذلك خاصة في مقالتي الفيلسوف الفرنسي جان بودريار الذي انهمك في ايجاد فاعلية ايجابية لما يخرق النظام العالمي الذي تمثله القوة الشمولية في العولمة الاميركية وضغطها على الخصوصيات والاجناس بما يسبب هذا الخرق سواء بأمثلة من نوع فيروس (I Love you) أو تمكن ثمانية عشر انتحارياً من التسلح المطلق بالموت كما يصفهم لافتعال سيرورة كارثية في ١١ ايلول. انه يقول جهاراً ان موقف هذا الخرق ايجابي ومبرر لان له موقفا قبليا يحكم نظرته إلى هذا الفعل الذي يدور حوله بهاجس التوصيف لاظهار بنية مخالفة ولو على سبيل الافتراض أكثر منه رصداً للوقائع والاحداث وتفسيراً واقعياً لها. واعجابه هذا لا يسنده أي علم جاد بالمرجعية المحرضة التي ينبثق عنها كلا المثالين.

ان نظرة بعض المفكرين الاوربيين إلى ان الخلاص من نظام العولمة وتحويله إلى هباء قد يأتي من ايما جهات مهمشة ، لذلك هم يهتمون بتحويل انتباههم وتفسيرهم من ثم، إلى نوع من تبشيرية حالمة بهذا الارهاب الغامض الذي يلبس الإسلام معنى من نتاج مفكري الغرب أكثر منه معنى مستنداً إلى ادراك لملابسات مظاهره وعوامل هذا الظهور المشتت غير المتبلور في صورة واحدة نهائية.

اننا ازاء خطاب يفسر الارهاب على وفق انهماك بتفريغ الواقعة "احداث ١١ ايلول" من وقائعيتها إلى بحث عن "سستم" نظام من مجردات تأنف من التعامل مع الحياة الاعلى اساس منطق شكلي افتراضي ربما ينسحب إلى امتدادات المعطى البنيوي الذي ترك مورثاته في السلوك التجريدي الرياضي الذي يعزل البنية التي يدرسها عن التاريخ ومتغيرات الحياة مع الادعاء بنزع اية ايديولوجية عن توجهه مما ينتهي إلى نتائج مكررة لا تأتي بجديد ولا تخلف اثرا دالا بعد كل خوض. الا ان الوازع القبلي موجود وهو يوجه مسار التحليل إلى نتائج مطلوبة. ان هذا ما يظهر في رغبة بودريار بنزع الاعتبار الاخلاقي عن الواقعة لاننا كما يقول في عالم غير اخلاقي. ان الاقتراب من الاخلاقية بنفيها يدخل ضمن الحكم الاخلاقي أيضاً، وهذا ما يفهمه المرء من الخوض في الاخلاقية والتنصل عن احكامها واعتباراتها. ان ذلك يشبه توصيفه لعبة (game) حديثة تعطي صورة الاستراتيجيات والخطط في عالم فقد الخصوصيات والاختلافات ولا تنتهي إلى نتيجة، أو تنتهي بما بدأت به.

ان هاجس نزع اتباعية اوربا لاميركا يوجه هذا الخطاب ويدفع به إلى مأزق من التعاطف مع الإرهابيين الذين قاموا باحداث ١١ ايلول الا انه لا ينجح في تفسير هذا التعاطف اذ يدور في حلقة توصيفه الرمزي المهووس بتأثيث اللعبة بالاستراتيجيات والاهداف لمصلحة اطراف لعبة مفترضة أكثر منها موجودة.

ومن الطبيعي ان يدور سجال في العالم الاوربي المتحضر لرفض آراء بودريار، والردود تدور في دائرة خطابه الذي يتمركز حول الميول الأوروبية وضيقها الحضاري من الموالاة للقوة الكبرى (أميركا).

لا بد من القول ان ثمة حيرة اكتنفت مفكري اوربا في نوع التفسير أو طريقة توجيه القول في احداث ايلول، لذلك انحصرت تقريبا الاراء في محاولة لعدم مواجهة الاحداث بمباشرة وواقعية وتم اللجوء إلى تحييد رمزي لفعل الارهاب، اما امبرتو ايكو فقد قدم سيناريوهات متخيلة تعطي المعنى نفسه من التهرب إلى فتح افق الخيال ان لم يكن باللجوء إلى الحسابات التجريدية الافتراضية، فأستعرض تاريخاً من المواجهات بين العالم المسيحي والعالم الاسلامي يلقي بظلاله على تاريخ من العلامات على الحروب الصليبية كما قد تشكلت في العقلية الاوربية على مدى قرون من الفصل بين العالمين على الاساس الصليبي. ومن هنا نفهم الموقف الاوربي من الاحتلال الاميركي للعراق في دائرة هذا المعنى أي من وجهة نظر صليبي سابق وهذا ما تأنف منه علمانيتهم الحاضرة، والمشكلة في التصنيف نفسه، اذ للحرب الصليبية مركزية تأثير لفهم غزو الاخر (المسلم) ولهذا تداعياته الدينية التي تشعر اوربا كما ينبغي بانها قد تخلصت منها إلى الايمان المطلق بحقوق الإنسان يبدو ذلك اذن مشكوكا فيه مع تأنيب الضمير الديني الاوربي في مسألة الاحتلال، الا ان هذا الضمير لا ينبض بأيما هاجس في اطار اخلاقي واضح يتمثل بمد الدكتاتور الذي حكم العراق بالسلاح والتأييد والقوة لكي يمارس بكل ما بوسعه عمليات اضطهاد وقتل وتشريد وتضييع لخيرات البلاد والعباد.

ينتهي سيناريو ايكو إلى رفض الحرب بين الشرق والغرب، وانه يجد ان الحرب الشاملة في عصر العولمة مستحيلة وهي هزيمة للجميع متجاوزاً نقطة الموقف من احداث ١١ ايلول التي لم يقدمها ضمن أولويات خطابه واهتمامه بالواقعة.

لقد اشترك جاك دريدا واخرون في انتاج هذا المعنى من الملابسة بسلوك طريقة ما من التعامل مع الواقعة، والكتاب عامة يعطي هذا الموقف الذي ملأ وسائل الاعلام بضجيجه دون ان ياتي بالجدة والخصوصية المتوقعين من مفكري العالم الحديث أمثال من ذكرنا.

في ذكرى وفاة جميل صدقي الزهاوي

شذرات من سيرة شاعر اغضب الملوك والشعراء

اعداد: قاسم آل دايخ

في صبيحة الثالث والعشرين من شباط عام ١٩٣٦ استيقظت بغداد على خبر هزها من الاعماق، مات الزهاوي (٧٢) عاما فجأة بالسكتة القلبية ، ودفنت معه هموم (الفالج) الذي كان يعانيه، وانطوت صفحة مشرقة لرائد من رواد شعرنا العربي.

يخط جميل صدقي الزهاوي سيرة حياته في كتابة "المجمل مما ارى" فيقول ابي مفتي بغداد محمد فيضي الزهاوي وهو كردي ينتسب إلى امراء السليمانية "البابان" وامي فيروزج من اسرة وجيهة كردية، وقد ولدت في بغداد في يوم الاربعاء اخر يوم من ذي الحجة عام ١٢٧٩هـ الموافق ١٨ حزيران عام ١٨٦٣ م وكنت في حياتي اسمى المجنون لحركاتي غيرا لمألوفة، وفي شبابي "الطائش" لخفتي وايغالي في اللهو، وفي كهولتي الجريء لمقاومتي الاستبداد، وفي شيخوختي الزنديق لمجاهرتي بارائي الفلسفية.

هكذا خط الزهاوي سيرة حياته، وقد درس علوم اللغة والفقه على يد ابيه والشيخ عبد الرحمن القره طاغي ونظم الشعر في اللغتين العربية والفارسية في مطلع شبابه وكان شاعراً وفيلسوفاً مشهوراً، وكان في مجلة المعارف عام ١٨٨٧م، ثم عين مديراً لمطبعة الولاية ومحرراً في جريدة الزوراء، ثم عضوا في محكمة استئناف بغداد عام ١٨٩٢م ، وارسل في بعثة إلى اليمن حيث كان معذب الضمير لاحوال مجتمعه تحت حكم السلطان العثماني، عبد الحميد ، وبعد اعلان الدستور العثماني ١٩٠٨ عين استاذا للفلسفة الإسلامية في مدرسة الملكية واستاذا للادب العربي في جامعة اسطنبول عام ١٩٠٨م ثم عاد إلى العراق وعين استاذا في مدرسة الحقوق لتدريس مجلة الاحكام العدلية عام ١٩١٠ وبعد الهدنة عين عضوا في مجلس المعارف ورئيسا للجنة ترجمة القوانين العثمانية ثم عين عضوا في مجلس الاعيان العراقي عام ١٩٢٥.

كان شاعرنا جميل صدقي الزهاوي له نظام خاص في الأكل يقتصر على نوع معين من الخضراوات يظل يتناولها اسبوعا حتى ينتقل إلى لون آخر، وكان يذهب إلى السينما لمشاهدة طرزان ويهوى قراءة الروايات البوليسية.

وكان يتضايق من الاغتسال في الحمام برغم الحاح زوجته عليه حتى اصبح الجيران يدركون إذا ارتفعت الاصوات بين الاثنين فهذا يعني ان الزهاوي يغتسل، وكانت تستهويه اقلام الحبر وبسبب الشلل الذي أصابه في ساقيه كان يكلف احمد الصراف بالذهاب إلى (اورزدي باك) للبحث عن اقلام جديدة ليحضرها له !

وكان شديد الوسواس يخاف كثيرا ويتحاشى المرور في ازقة بغداد واذا عرف بوجود حائط مائل للاهتدام لا يمر بجانبه وسئل لماذا؟ فرد على السائلين الا يوجد احتمال واحد بالمليون ان يسقط الجدار في اثناء مروري فلماذا اقدم على هذه الحماقة؟

كان الزهاوي يحب الثناء والمديح وكان ياخذ من زوجته (يومية) يضعها في كيس وهي تتالف من (آنات) وينصرف إلى المقهى ويتجمع حوله تلاميذه ويسمعهم ما نظمه من شعره الجديد، ويسمع منهم عبارات الاعجاب والثناء مشفوعة بنقد الرصافي فيطرب لذلك اشد الطرب. واذا حدث ان قام احدهم يريد الانصراف يخرج الزهاوي من كيسه (آنه) قائلا لصاحب المقهى هذا حساب فلان . اما إذا سمع نقداً أو تعريضا بشعره فانه يتجاهل دفع الحساب.

كان الزهاوي قد هاجم الملوك والسلاطين وقد خاطب السلطان عبد الحميد وقال:

تأن في الظلم تخفيفاً وتهوينا
فالظلم يقتلنا والعدل يحيينا

يا مالكاً امر هذي الناس في يده
عامل برفق رعاياك المساكينا

لهوت عنابما اوتيت من دعه
فابيض ليلك واسودت لياليا

اما موقفه من الملك فيصل الاول فله قصة طريفة حيث كان الزهاوي في مقدمة الشعراء العراقيين الذين رحبوا بترشيح الامير فيصل بن الحسين ملكا على العراق، وانشد قصائد عدة قبيل تتويجه وبعده، ولكنه لما طبع رباعياته في بيروت عام ١٩٢٤ وديوانه في القاهرة في السنة نفسها اخرج تلك القصائد منها ، اذ اعتبرها من "قبائحه" ففي احدى رباعياته قال قد مدحت الذين لم يستحقوا مدائحي.

كما انه سمى تلك القصائد بالمطرودات أي انه طردها من ديوانه، اما السبب الذي حمله على فعل ذلك فهو خيبة امله، اذ ان الملك لم يحقق رغبته وطموحه فيعينه (وزيرا للمعارف) في وزارة النقيب الثانية أو الثالثة ولذلك غضب وقرر ان يهجر وطنه ويغادر إلى مصر. ولما سمع الملك فيصل الاول رغب في ترضيته ورأى ان يعينه شاعراً في البلاط غير ان الزهاوي رفض ذلك العرض، وقد نظم قصيدة اراد اغاظة الملك فيصل فنظم قصيدة مدح فيها الملك عبد العزيز آل سعود.

اما موقفه من الشاعر المصري احمد شوقي الذي اثاره ضده الشعراء والادباء وقد نقد شعر احمد شوقي وقال انه لا يعترف بامارة شوقي للشعر بل يعتبره شاعرا غير مجدد لذلك كان يتحين الفرص من شعره على الرغم من كونه من فحول الشعراء في عصره، وقد حدث ان مات الشاعر اسماعيل صبري باشا عام ١٩٢٣ فرثاه احمد شوقي بقصيدة مطلعها

اجل وان طال الزمان موافي
اخلى يديك في الخليل الوافي

فلما قرأها الزهاوي، تصدى لنقدها بيتاً بيتاً على صفحات جريدة العراق ابتداءاً من عددها في ٣١/ ٥/ ١٩٢٣ ولكن بتوقيع (شاعر عراقي كبير) فلما قرأ ادباء بغداد هذا النقد الشديد تصدى بعضهم في الرد عليه، وكان في مقدمتهم الاستاذ محمد بهجت الاثري اذ نشر تسع مقالات على صفحات جريدة العراق أيضاً يفند كل ما قاله بحق شعر امير الشعراء ثم توالت عليه الردود وفيها الشيء الكثير من الهزء والسخرية والنقد الشديد لشعره.

واما موقفه من الشاعر معروف الرصافي، حيث كانت العلاقة بين الشاعرين جيدة في الظاهر فقد مدح كل منهما الاخر بقصيدة الا ان هذه العلاقة تغيرت عام ١٩٢٥، وجاءت نسخ من "رباعيات" الزهاوي من بيروت سارع باهداء صديقه الرصافي نسخة منها وكان الرصافي انذاك يعمل في وزارة المعارف. وحدث ان زاره في مكتبه الاستاذ احمد حامد الصراف فلما جلس قرب المنضدة، رأى نسخة من الرباعيات فاخذها وراح يقلب صفحاتها فرأى على تلك الصفحات تعليقات بقلم الرصافي فيها اشارات تحط من شعر الزهاوي ، عند ذاك رأى الاستاذ الصراف ان الفرصة المناسبة لاذكاء نار الخصومة بين الزهاوي والرصافي فطلب من الرصافي اعارته الرباعيات كي يقرأها، لان الزهاوي لم يهده نسخة منها. لما كان الرصافي خالي الذهن عما اضمره الصراف سلمه الرباعيات على امل ان يعيدها له بعد قراءتها. ولما تسلمها الصراف خرج مسرعا وذهب إلى دار الزهاوي ولما قابله قال له:

هاك اقرأ ما يقول صديقك في رباعياتك!

فلما اخذ الزهاوي الرباعيات وقرأ ما كان قد كتبه الرصافي من تعليقات هاله ما رأى فهل يسكت عنه؟ لا لم يسكت بل بادر بكتابة نقد لشعر الرصافي وبيان اخطائه النحوية واللغوية وشركائه من الشعراء الاقدمين بل ومن شعره أيضاً، ولكنه لما اراد نشر هذا النقد في الجرائد البغدادية لم يوفق، الا انه جاء في تلك الفترة، إلى بغداد صحفي سوري صاحب جريدة " الفيحاء" فلما زار الزهاوي عرض الزهاوي عليه ما كتبه حول نقد شعر الرصافي فرحب بنشره في جريدته في ملفات ولما جاءت اعداد الجريدة الدمشقية وفيها النقد انبرى للرد على الزهاوي الاستاذ روفائيل يطي مدفوعاً من قبل الرصافي، ونشر مقالات في سرقات الزهاوي من الشعراء الاخرين. وهكذا اشتدت الخصومة بين هذين الشاعرين الكبيرين. وزاد لهيبها، ولما لم يتوقف الزهاوي عن ملاحقته الرصافي نظم الرصافي بعض الابيات يهجو بها الزهاوي قال فيها:

قل للزهاوي اني كنت لاقيه
مقالة كان فيها بادي الحذر
لقد بلعت علوم العصر قاطبة
بلعاً تضيق له بالوعة القذر
وكان يبلعها في مدة قصرت
عما يسارق لحظ العين والنظر
كتبت اسم اه هاتيك العلوم على
ما قد من قنب نزا من الحمر

وعندما بلغت الخصومة بينهما حداً لا يطاق سعى اهل الخير لمصالحتهما فاقام المرحوم محمد صبحي الدفتري في داره لهما حفلة شاي مساء يوم ٨/ ١٢/ ١٩٢٨ حضرها لفيف كبير من ادباء وشخصيات بغداد وبذلك عاد الصفاء (ظاهرياً) بينهما. بعد ان بذل الدفتري جهوداً في اقناع الرصافي المتعنت ووفق شروط منها عدم مفاتحته مباشرة اثناء اجتماعه مع الزهاوي في صالون الجمعة بامر الصلح وانما يجب ان يترك الامر على سجيته بحيث يجتمع كلاهما ويتحدثان كما لو كان لم يقع بينهما شيء.

اثارت ملحمته الشعرية التي سماها (ثورة في الجحيم) التي نشرها في مجلة الدهور اللبنانية عام ١٩٣١، ضجة كبيرة ضده في بغداد وقد اشار إلى هذه الضجة في مقدمة ديوانه (الاوشال) قائلاً: (لما نظمت قصيدتي ثورة في الجحيم اخذ بعض الخطباء يلعنني فقلت في نفسي : تساوى قصيدتي كل هذا اللعن ثمناً لها وستذهب لعناتهم وتبقى ثورة الجحيم خالدة).

ان للزهاوي ابياتاً يعرب فيها عن ايمانه بالله واهمها تلك الابيات المنقوشة على قبره وهي :

عبدتك لا ادري ولا احد درى
اسرك ام صدر الطبيعة اوسع؟
عبدت اسمك المحمود في الليل والضحى
إذا الشمس تستغفي إذا الشمس تطلع
فايقنت ان الكون بالله قائم
وايقنت ان الله للكون مبدع
وانك معنى الحقيقة لفظه
وانك نور والحقيقة برقع

تشييع جثمان الزهاوي وقد جلس خلف النعش معروف الرصافي ومحمد رضا الشبيبي

عرض كتاب

انواء بغداد واحوالها الطبيعية في العصر العباسي

يؤكد علماء النفس ودراسة الشخصية الانسانية، إن للطقس تأثيراً كبيراً على مزاجية الفرد وتقلباتها، لذلك يقال عن شعب مثلاً، أن مزاجه هادىء، أو يقال على مجموعة بشرية اخرى بأنها حادة المزاج و هكذا. وعلى ما يبدو فإن ما يقال عن إزدواجية الشخصية العراقية التي تحدث عنها الدكتور علي الوردي (رحمه الله) في دراسته للمجتمع العراقي، هي إنعكاس للطقس العراقي وتحديداً البغدادي المتقلب، حيث تستطيع أن تتمتع بأربعة فصول في يوم واحد أو في فصلين في شهر واحد. فيحدث أن تمطر في تموز، وان ترتدي قميصاً شفافاً في عز برد شباط!.

في كتابه (انواء بغداد وأحوالها الطبيعية في العصر العباسي) يرصد الكاتب د. حسن عيسى الحكيم. أحوال بغداد الطبيعية. منذ تأسيسها عام ١٤٥ هجرية وحتى سقوطها بيد المغول الايلخانيين عام ٦٥٦ هجرية. وقد توزعت مفردات البحث على سبعة محاور ففي محور الامطار والثلوج. يرصد الكاتب (٢٢) حالة سقوط أمطار غزيرة للفترة (٣٢٧. ٦٢٢هـ) أي بمعدل حالة مطرية غزيرة كل (١٣) سنة. وأخطر غزارة كانت عامي ٥١٦هـ التي وصفها المؤرخ ابن الجوزي بالقول (أجمع الاشياخ إنهم لم يروا مثله في أعمارهم).

فيما يقول إبن الاثير عن عام ٦٢١هـ ، كان غزيراً بمطره (حيث كان الناس يخوضون في الماء والوحل) بينما شهد عام ٥٣٥هـ، سقوط برد (أي ثلج) ويقال أن الثلاجين جمعوا هذا البرد وكبسوه. وشهدت بغداد (١٩) حالة سقوط ثلج غير طبيعية. ووصلت برودة طقس بغداد الى حالة التجمد في عشر سنوات (٥٧٢.٢٨٩هـ) أي بمعدل مرة واحدة كل (١٢) عاماً.

وحدث في تموز عام ٣٠٨ هـ إن نزل الناس من السطوح وتدثروا باللحف.

وفي محور الرياح، فإن الكاتب يقسمها الى رياح سود وحمر وصفر، وقد وصلت شدة الرياح في عام ٥٤٩هـ إلى ان خاف الناس ان تكون القيامة وفي عام ٥٦٦هـ خر الناس على وجوههم، وشهدت بغداد (٣٦) مرة رياحاً شديدة وصفت احداها، بأن الانسان لايكاد يرى صاحبه. والريح السوداء اكثر ضرراً للمحصولات الزراعية. اما الرياح الحمر والصفر فقد غطت غيمة حمراء أحياء بغداد. وقيل كأنها الشفق، الا انها اشد حمرة (لم نر مثلها كأنها الدم). وبرغم اعتماد المؤلف على مصادر تاريخية متنوعة إلا أن بعض المعلومات تبدو مبالغاً فيها. فيقول إبن الاثير، في عام ٤١٨هـ هبت ريح الغرب باردة . وهي اليوم ساخنة . وجمدت منه حافات دجلة وجمد الخل وأبوال الدواب، ورأيت ناعورة قد وقفت لجمود الماء!!

وفي محور المذنبات، ذكرت كتب التاريخ ظهور المذنبات في سماء بغداد بقي احد المذنبات ثلاثة عشر يوماً (٣٣٠هـ) ومنها عشرة أيام (٦١٩هـ) واطوالها تراوحت بين ذراعين ورمحين. ومن مظاهر الحضارة في ذلك العصر، إن بغداد كان فيها مرصد للكواكب في عام (٣٧٨هـ). فقد كان الخليفة ا لمأمون، يرصد الكواكب السبعة في مسيرها وتنقلها. وفي محور الآفات والأمراض، دهم الجراد بغداد عام (٤٦٨هـ) وتسببت في تدهور اقتصادي خطر ووصف الجراد (بعدد الرمل والحصى) وغزت الفئران بغداد عام (٦١٤هـ) وقيل، إن الانسان لا يقدر أن يجلس إلا ومعه عصا يرد الفئران عنه. وإنتشر مرض الطاعون لخمس مرات بين (٢٢٠. ٤٧٩هـ) وقال فيه أحد الاطباء (ما رأينا مثل هذه الامراض لا تلائمها المبردات ولا المسخنات).